الأستاذ كمال بيرم

مقياس المجتمع الجزائري وفعالياته

السنة الثانية ماستر حديث

المحاضرة الأولى

مصادر تاريخ الجزائر الاجتماعي والاقتصادي في العهد العثماني

اهمية المصادر الاجنبية

تبقى الفترة العثمانية فترة تجاذب تاريخي متعدد الاتجاهات ومن منطلقات فكرية ذات رواسب ومشارب مختلفة، ولا تزال تأخذ منحى له تأثير قوي في بناء الذاكرة الوطنية ،تجدر الإشارة في بداية الحديث عن تاريخ المجتمع الجزائري خلال الحكم العثماني إلى طبيعة الكتابات التاريخية حول هذه الفترة، فقد كانت هناك اتجاهاتٌ فكرية وتياراتٌ تاريخية في كتابة التاريخ الجزائري عمومًا والتاريخ العثماني في الجزائر خصوصًا، وقد هيمنت المدرسة الاستعمارية وسَعَت إلى تكريس الرّواية الفرنسية عليها، والتي ركّزت على العهد الرّوماني والحكم الفرنسي وتجاهلت –بل وشوّهت– العهد الإسلامي ومنه العهد العثماني، وهو ما أبعدها عن الحياد والموضوعية رغم عرَاقة الثقافة الفرنسية الأكاديمية، فصبّت في خدمة أهداف السّياسة الاستعمارية بذلك التفسير السّطحي والتحيّز المفضوح، والذي يمكن أن نسمّيه بحق: ''إبادة ثقافية حقيقية.

للأسف نجد ان الكتابات التاريخية الجزائرية بعد الاستقلال، لم تسلم من ذلك التشويه، فقد خضعت في مجملها كما يقول الدكتور ناصر الدّين سعيدوني إلى: ''توجّهاتٍ إيديولوجية اشتراكية وإلى ميولٍ سياسية يسارية''، و''تحوّل التاريخ في هذه الفترة إلى وسيلةِ إقناعٍ سياسي، ونضالٍ إيديولوجي، وتوجيهٍ ثقافي..''، وهو ''الواقع المتميز باستمرار الكتابة التاريخية باللّغة الأجنبية (الفرنسية) وباستبداد النّظرة الإيديولوجية، وهو ''ما لم يصل إلى حدّ إرساء مدرسةٍ تاريخيةٍ جزائريةحقيقية ومستقلة''، وهو ''ما أحدث شروخًا في الشّخصية الوطنية وأدّى إلى اضطراب في الذّاكرة الجماعية.تعتبر المصادر الغربية من الوثائق التي لا بد من العودة إليها لكتابة تاريخ الجزائر الحديث، فكتابها عرفوا المنطقة وكتبوا عنها وتطرقوا إلى الكثير من الأحداث التي لم يكتب عنها المؤرخون المحليون، ولكن رغم أهميتها إلا أن المدرسة التاريخية الفرنسية تصر على تسمية العثمانيين في الجزائر بالأتراك، في محاولةٍ لإثارة النّعرات القومية، وتأجيج الصّراعات العِرقية والمذهبية بينهم وبين العرب والبربر. ومن أمثلة ذلك ما قام به المؤرّخ الفرنسي de Gramont الذي ألّف كتابًا تحت عنوان: (الجزائر تحت السّيطرة التركية histoire d'Alger sous la domination turque)، او فايسات Eugene vayssette في كتابه تاريخ قسنطينة تحت السيطرة التركية histoire de constantine sous la domination turqueفنجد كلّ الكتابات التاريخية الفرنسية –ومَن

تأثّر بها- يسمّون الوجود العثماني في الجزائر بالاحتلال التركي وبالعهد التركي وبالحكم التركي، وسوف لن يسمّونه لا بالعهد العثماني ولا بالخلافة العثمانية، ناهيك أن يسمّونه بالخلافة الإسلامية.

لكن منهجيا وعلميا لا يمكن الاستغناء عن هذه المصادر رغم تحيزها وتوجهها في كتابة تاريخ الجزائر العثمانية لان ما كتبه الأوروبيون من رحالة، وقناصل، وجواسيس، ورهبان وسياح ومغامرين وأسرى الذين هم أجانب عن المجتمع الجزائري، أقاموا بين أحضانه فترة من الزمن تركوا انطباعاتهم التي أصبحت مصدرا مهما في كتابة تاريخ الجزائر العثماني، وقسم كبير من هذه المصادر لا يمكن أن نستغني عنها أبدأ، ففي كتب هؤلاء الأوروبيين شهادات وأوصافا وتواريخ مضبوطة وإحصاءات وقوائم الحكام وتحليلات لحوادث خطيرة، وتقارير وتفاصيل لا نجدها في غير هذه الكتب.قدم العديد من الاوربيين مؤلفات في شكل رحلات او ملاحظات تاريخية وجغرافية وصفية لها دلالتها في ظل فقدان المصادر المحلية نذكر منهم على سبيل المثال:

ج.آو.هاسترايت، رحلة العالم الألماني ج.آوها سترايت إلى الجزائر وتونس 1732

ورحلة جون أندري باسيونال إلى الج ازئر 1725.

رحلة توماس شو الطبيب إلنجليزي 1720 -1732.

وليام شالر، مذكرات قنصل أمريكا في الجزائر)1816 -1824)ترجمة إسماعيل الغربي

جيمس ليندر كاثكارت: مذكرات أسير الداي وقنصل أمريكا في الجزائر 1785.

-فونتير دي با اردي، الج ازئر في القرن 18 م.

رحلةفيليب سيزار فاليار، الجزائر سنة 1781.

الرهبان: الراهب بيير دان، تاريخ بربارياوقراصنتها

كامولين فرانسواوآخرون، رحلة من أجل إفتداء الأسرى في الجزائر وتونس)1720.

السياح: ليسور وويلد، رحلة طريفة في إيالة الجزائر)ترجمة محمد جيجلي

-الأسرى: دييغو دي هايدو، طبوغرافية و تاريخ الجزائر العام)1572-1580.

تفيدنا اغلب هذه المصادر الأجنبية في الجانب الاجتماعي والاقتصادي عن أمور كثيرة منها كيفية استخلاص الضرائب في قضية الدنوش الصغرى والكبرى - .خروج المحلات من مدينة الجزائر دار السلطان ومن قسنطينة ووهران والتيطري إلى داخل الجزائر لغرض اقتصادي كما نجد فيها معلومات عن النشاط الحرفي وكيفية توزيع الأسواق والحرف في المدن بالتفصيل الدقيق - .وجود الصناعات التقليدية)الحرفية خصوصا في المدن الكبرى كالجزائر وقسنطينة والمدية ومعسكر ووهران - .تحدثت عن العملة وأنواعها الذهبية والفضية والنحاس وغيرها وقيمة كل عملة - .تحدثت المصادر عن أنواع الأراضي المختلفة في الريف وكيفية استغلالها وحتى في أحواز المدن، أراضي الوقف وأراضي البايلك وغيرها وفيها من المعلومات والمعارف عن الجانب الزراعي، الصناعي

والتجاري ما قد يوضح الصورة في تلك الفترة – .تحدثت المصادر عن الصاد ارت والواردات والميزان التجاري في بعض فترات الحكم العثماني وكيفية تأثير ذلك على النظام السياسي – .تحدثت عن المنتوجات الفلاحية وعن الأقاليم المناخية والثروة الحيوانية وحتى المنجمية التي كانت تزخر بها الجزائر في تلك الفترة – .تحدثت عن أهمية البحر الأبيض المتوسط.

ومن بين الكتابات الأجنبية حول تاريخ الجزائر العثمانية والتي اعتمدت في كثير من الكتابات الوطنية نجد:

1 فراي دياقودي هايدو (Fray Diego de Haedo) وكتابه طبوغرافية تاريخ الجزائر العام

لقد اعتمد "هايدو" في كتابه على شهادات حية سجلها ، وكما اعتمد على المصادر التاريخية المعروفة " وصف إفريقيا " لليون الإفريقي و جغرافية استربون Estrabon في تحديد المواقع الجغرافية الطبيعية و الساحلية منذ عهد الرومان و قد خصص "الراهب هايدو" واحد و اربعين (41) فصلا عن الحياة الإجتماعية و عادات الجزائريين، ترجمت أجزاء من هذه الأعمال من قبل Berbrugger الذي شغل مدير الجمعية التاريخية والذي اشرف على إدارة المجلة الافريقية في بدايتها la revue africaine وMonnerou و نشرت بالمجلة الإفريقية العدد 14 و 15. الى جانب ترجمة .Gramont M جزء خاص بملوك الجزائر(

2– الأب بيير دان((Pierre Dan)تاريخ بربارية وقراصنتها Histoire de la barbarie et de ses corsaires :

تحدث الكاتب على تاريخ القرصنة وشيوعها في شمال إفريقيا، خصص له ثمانية فصول، وتناول فيه تفسير مصطلحي "بار باريا" barbarieو"بارباري" berberieمع وصف للبلاد وحكامها عبر التاريخ. وفي الجزء الثاني أشار "الأب بيير دان" إلى المدن القرصانية في شمال لإفريقيا، وأوضاعها وجزأه إلى 24 فصلا في خمس إخباريات. الخبر الأول: حول أوضاع مملكة الجزائر ومدينتها ودورها القرصاني، والخبر الثاني: حول مملكة تونس ومدينتها، وقراصنتها، الخبر الثالث: تحدث على ممالك المغرب ومدينة سلا ودورها القرصاني، الخبر الرابع: خصص للمدن الإسلامية القرصانية الأخرى، الخبر الخامس: تحدث عن عقيدة الإسلام المنتشرة في شمال إفريقيا ومظاهر مجتمعها.الكتاب يتضمن أساليب العمل القرصاني ونتائجه، خصص له المؤلف ثمانية فصول للاهتمام بالحياة العملية لقراصنة شمال إفريقيا مشيرا إلى أسباب نجاح المسلمين في هذا المجال، وكيفية استعدادهم وتجهيزاتهم المعتمدة، ثم يتطرق إلى أهمية الغنائم وكيفية توزيعها. يشير المؤلف إلى أهمية العلوج، ووضعيتهم وأدوارهم القرصانية والعسكرية. تطرق الى دوافع تحول المسيحيين الى علوج ، و مساعي المسلمين في إجبار على ذلك ... ثم يتحدث عن العقوبات التي يتعرض لها من ارتد منهم عن الإسلام أو حاول الفرار الى الأراضي المسيحية

أما الجزء الخامس تحدث المؤلف حول معاناة المستبعدين المسيحيين، وكيفية افتدائهم. وفي الجزء السادس والأخير تطرق المؤلف إلى أدوار منظمة الثالوث الأقدس للكتاب أهمية كبيرة بالنسبة للباحث المهتم بتاريخ شمال إفريقيا، وتاريخ الجزائر بشكل خاص، بفضل ما تضمنه من معلومات جديرة بالاهتمام في الشق الاجتماعي والاقتصادي للجزائر العثمانية.

3- جيمس ليندر كاثكارت (James Leander Cathcart) مذكرات كاثكارات: الكتاب مهم بالنسبة للدراسات الاجتماعية والاقتصادية والعمرانية فضلا عن الجوانب السياسية التي تأخذ حيزا وافرا بحيث تناول كاثكارت في مذكراته العلاقات الجزائرية الأميركة، وهي المصدر الأساسي والوحيد في هذا المجال في الربع الأخير من القرن الثامن عشر، وذلك لأن كاثكارت هو الذي تولى المفاوضات مع الداي في مختلف مراحلها لعقد المعاهدة الأولى مع أمريكا، مستغلا في ذلك معرفته بنفسية الداي وبهيكل العلاقات الخارجية بصفة عامة، كما تطرق كاثكارت في مذكراته إلى علاقات الجزائر بالدول الأوروبية، ولقد وصفها بأنها مليئة بالتنافس والتطاحن من أجل المصالح السياسية والتجارية، وقد خصص فصلا لوصف الشؤون البريطانية في الجزائر. أشار كاثكارت إلى المؤسسات والمنشآت العمومية، ووصفها وصفا دقيقا، فيتحدث بصفته شاهد عيان، عن المدارس والمساجد والسجون.. وقد خصص فصلا لوصف قصر الداي من الداخل في عهد حسن باشا، ويعتبر وثيقة هامة لا مثيل لها حيث تعرفنا بمختلف أجنحة القصر ودهاليزه ومرافقه وشكله وزخارفه.
كما تطرق في مذكراته الى الحياة الاجتماعية، بالرغم أنه لم يختلط بالشعب الجزائري، لأنه عبد لا يسمح له بالخروج إلا في مواسم الأعياد، سجل كاثكارث أن الشعب الجزائري كان يعاني من الإرهاق بالضرائب و الظلم و الجوع و الأمراض، في ضل الحكم العثماني، كم أن وصفه للسجون ي أواخر القرن الثامن عشر، يعتبر وثيقة مهمة، دقيقة وشاملة بشأن تشغيل الأسرى، طعامهم، نومهم، الرقابة و الإدارة.

4- فونتور دي بارادي (Venture de Paradis) تونس والجزائر في القرن 18 Tunis et Alger au XVIII e siècle:

لقد ترك "فونتور دي بارادي"(عدة مؤلفات بعضها مطبوع وبعضها لا يزال مخطوطا بالمكتبة الوطنية بباريس ومن بين مؤلفاته ترجمة كثير من الكتب العربية النادرة ومن أهم ما ترجمه: تاريخ الخلفاء والمماليك بمصر للشيخ يوسف المقدسي، والموجز الجغرافي والتاريخي لدولة المماليك لابن شاهين الزيري(.ومن أهم ما ألفه كتاب "تونس والجزائر في القرن 18"(وهو عبارة عن تقارير عديدة تتضمن معلومات غزيرة عن الحياة السياسية والاجتماعية في الإيالتين: تونس والجزائر. والكتاب يعتبر بحق مصدرا تاريخيا متميزا من حيث معلوماته و

الحقائق التي جاء بها، وفريدا من نوعه من حيث التفاصيل التاريخية التي يحتوي عليها بخصوص سير الإدارة الجزائرية بمختلف أجهزتها العسكرية والمالية والأمنية وضمنه معلومات الحياة الاجتماعية والاقتصادية في الإيالتين. وقد تميز هذا الكتاب بالدقة في تسجيل الأحداث ووصفها، وهي الميزة التي تكاد لا توجد في المؤلفات الأوروبية الأخرى في تلك الفترة.

5- لوجي دوتاسي (Laugier de Tassy) تاريخ مملكة الجزائر:

يتناول كتاب : تاريخ مملكة الجزائر، حكومتها وقوتها البرية والبحرية ومداخيلها، الشرطة، القضاء، السياسة والتجارة"، جوانب دقيقة ومفصلة حول تاريخ الإيالة، نظامها الاقتصادي والسياسي والاجتماعي. موقف الكاتب من خلال هذا الكتاب هو وضع حد لكل الأحكام المسبقة السائدة في أذهان رجال الدين في أوروبا، وتصحيح الأخطاء الشائعة والنظرة الحاقدة إلى الدول الأخرى وشعوبها خاصة في شمال إفريقيا وبالتحديد الجزائر، رغم أن هناك سلبيات في نظام الحكم االعثماني ، إلا أن هناك إيجابيات لا يمكن إنكارها، وبذلك يمثل "دوتاسي" تيارا فكريا جديدا في أوروبا الذي بدأ يبرز في منتصف القرن 18 وجوانب من الحياة العامة بالجزائر العثمانية.

6- توماس شو (Tomas Shaw) جولة في إيالة الجزائر وتونس voyage dans la régence d' Alger et Tunis:

من المصادر الأساسية في وصف الجزائر العثمانية ومدنها وسكانها التي قدمها الطبيب الدكتور البريطاني "توماس شو"و هو عمل نادرا بعنوان "جولات في ولايات متعددة ببلاد البربر والشرق" في جزئين تضمنا أوصافا دقيقة وتفاصيل عن بلاد الجزائر وخاصة عن ريفها ومنتجاتها، كما تضمنا معلومات عن الحياة السياسية والإدارية والاجتماعية.ويعد الكاتب من الدارسين والرحالة الذين حاولا التحدث عن بلاد الجزائر خلال النصف الأول من القرن 18م إذ رسم خريطة وضح عليها معالم جغرافية وحدد بها حدود إيالة الجزائر وخاصة حدود بايليك الشرق الجزائري.ولقد طبعت أعماله باللغة الإنجليزية مرتين بأكسفورد سنة 1738 وبلندن عام 1757، مثلما ترجمت هذه الأعمال إلى الفرنسية مرتين الأولى طبعة لاهاي عام 1743 والثانية طبعة باريس عام 1930[1].

7- تيدنا"نظرة على إيالة الجزائر"

كان تيدنا يرافق الباي محمد الكبير() في كل تنقلاته وعلى هذا الأساس تعتبر مذكراته[2] مصدرا هاما، يقدم معلومات عن شخصية الباي، نظام حكمه، وعلاقاته مع مختلف شرائح المجتمع الجزائري من جهة، و بين الجزائر و أوربا من جهة أخرى.

كان يتقن اللغة الإسبانية، الإيطالية، العربية، الأمر الذي أهله أن يتولى مهاما في حياته الدبلوماسية بعد إسترجاع حريته وعودته الى فرنسا. و في سنة 1785 كتب هذه المذكرات في إحدى مستشفيات زوريخ و قد جاءت على شكل اعترافات و هو مريض.ساهم تيدنا في إثراء الخطة الفرنسية لاحتلال الجزائر، حيث أسرع في جمع ذكرياته و جعلها في مذكرة تحت عنوان: "نظرة على إيالة الجزائر" ذكر فيها أعمال القراصنة ووحشية البربريين ووضح أن سلطنة الداي والبايات الثلاث قائمة على أقلية من العسكريين ذوي الامتيازات. ومهما يكن فإن مذكرات تيدنا قدمت لنا صورة واضحة عن الحياة الاقتصادية والاجتماعية للجزائر، والمعاملة الحسنة التي كان يحظى بها الأسرى المسيحيين في الجزائر، كما قدمت لنا أيضا صورة واضحة عن أحد البايات الكبار الذين عرفتهم الإيالة الجزائرية في القرن 18م.

يتميز تاريخ الجزائري في الفترة العثمانية، بتنوع المصادر الغربية، وغزارتها وهي ذات جنسيات مختلفة منها الفرنسية، الإسبانية والإيطالية، الإنجليزية والأمريكية ورغم ابعادها المختلفة الا انها رغم ذلك تبقى لها أهمية معرفية من جانب تدوينها لاوضاع غفلت عنها الكتابات المحلية وبخاصة الجانب الاجتماعي الاقتصادي.

---

[1] -Shaw, Voyage dans la régence d'Alger truit de l'anglais par Mac Cathy, paris 1830.
[2] - Venture de Paradis, Alger au 18ème siècle, in R.A, Année 1948, pp 157-183.